مجلة

الجمعية الجغرافية الليبية



العدد الأول السنة الأولى 1425 (1996)

مجلة الجمعية الجغرافية الليبية

تصدر سنوياً عن الجمعية الجغرافية الليبية

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

بنغازى

مجلة الجمعية الجغرافية الليبية

العنوان: قسم الجغرافيا - جامعة قاريونس

ص.ب 18244 بنغازى

المحتويات

تم تمويل فاتح أعداد مجلة الجمعية الجغرافية الليبية من ميزانية جامعة قاريونس، التي لا يسعه أمانة تحريرها سوى تقديم وافر الشكر والعرفان وفاء لها على هذه اللفتة الكريمة

رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

عزيزى القارئ

شكرا لا نهاية له لعون العلى القدير، الذى أتاح الظرف الملائم والمناسبة السعيدة اللتيين أمكن من خلالهما فك العقال الذى حال دون إنطلاق الجمعية الجغرافية الليبية وأبقى عليها مجرد رهينة دون حراك مدة عقد ونصف، كان بالإمكان خلالها تحقيق العديد من اللقاءات لذوى الاختصاص، وما أكثرهم، فى مختلف اطراف بلادنا الحبيبة، وما ينجم عن ذلك من إثراء للدراسات الجغرافية التى لازلنا فى أمس الحاجة للقيام بها وتعميم نشرها خدمة لابنائنا الطلبة، ولكل من يهمهم الاطلاع وجنى أكبر رصيد من المعلومات التى لا تزال ترنو إلى من يكشف دثارها.

فقد حقق الملتقى الجغرافى الأول بمدينة الزاوية عام 1993، صدور نتائج أعماله فى جزئين تحت عنوان: العلوم الجغرافية وحماية البيئة، وحقق اللقاء الثانى بمدينة بنغازى فى العام المنصرم، ضمن أحد توصياته صدور هذا العدد من مجلة الجمعية التى حين يكتمل شد الأزر، ويصبح الإحساس بالاسهام فيما تقوم به جزءا من مهام حاملى لواء هذا الفرع من التخصص العلمى، الذين تعتز المجلة بوجودهم وبمساهماتهم الهادفة التى عليهم مضاعفتها كما ونوعا للشعور بأنها لازالت أقل مما يتحتم عليهم القيام به خدمة للصالح العام.

الأخوة القراء

نستسمحكم عذر أية هفوات قد تلفت انتباهكم فى الوقت الذى نشكر فيه من تفضل بالمساهمة فى توفير المادة العلمية لنواة هذه المجلة المتطلعة لغد أفضل، علما بأننا على استعداد تام لنشر كل ما هو مطابق للشروط كما يشرفنا تلقى اقتراحاتكم فيما يتعلق بالرفع من شأن هذه

الدورية التي يسعدها التنويه بجهد الأخوة في المركز العربي للحاسب الآلي، وكذلك الأخت أميمة عبدالعزيز الضراط، للجهد الذي قدموه في وصول هذا العدد إليكم، مع التأكيد للجميع بأن الدفع والرفع من شأن هذه الدورية لن يكتب له إستمرار التواصل إلا بمعاضدتكم لها.

والله ولي التوفيق

د. الهادي بولقمة

رئيس التحرير

الاتجاهات الفلسفية والمنهجية في الجغرافيا *

د. عبدالحميد بن خيال **

المقدمـــة

لقد مرت الجغرافيا بمراحل متعددة عبر تطورها الفكري منذ القدم حتى وقتنا الحاضر. وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تظهر اتجاهات منهجية جديدة مبنية على الفلسفات التي يعتنقها الجغرافيون في تلك الفترة.

والهدف الأساسي من هذا البحث هو تحديد الاتجاهات الفلسفية والمنهجية التي سادت في كل مرحلة من مراحل تطور الجغرافيا. وسعيا وراء هذا الهدف الرئيسي سنتطرق إلى مناقشة مجموعة من القضايا والمشكلات المنجية، كموضوع وحدة أو تعدد المنهج في الجغرافيا، وقضية الخلاف بين مؤيدي استخدام المنهج العلمي الوضعي وأنصار المناهج الأخرى التي تؤكد على الذاتية والمتبعة في الدراسات الانسانية كالمنهج التاريخي والمنهج المعرفي، وسنتطرق أيضا إلى علاقة الجغرافيا بالعلوم الأخرى والمناهج المستخدمة فيها. كما سنحاول إبراز أهم الثورات الفلسفية والمنهجية في الجغرافيا.

والطريقة المتبعة في هذا البحث لمعالجة هذه القضايا ستكون بإستعراض الأدبيات الجغرافية ومناقشة أهم المدارس الفلسفية والطرق المنهجية المتبعة في كل مرحلة من مراحل تطور الفكر الجغرافي مع التركيز على الاتجاهات الواضحة التي تميز كل فترة وإبراز إسهامات أهم الجغرافيين في تلك الفترة.

هذا وقد قسم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام رئيسية، القسم الأول يتحدث عن التراث الجغرافي منذ كتابات اليونانيين القدماء ومرورا بالعصر الروماني والجغرافيا الإسلامية حتى عصر الكشوف الجغرافية. أما الجزء الثاني فيتناول بدايات الجغرافيا الحديثة وجذورها إبتداء من

---

* قدمت في الندوة العلمية حول المنهج العلمي المنعقدة في كلية الآداب والتربية، جامعة قاريونس، 2-1988/4/4.

** أستاذ مشارك بقسم الجغرافيا، جامعة قاريونس، بنغازي.

القرن السابع عشر حتى منتصف القرن العشرين، وقد تم التركيز فى هذا القسم على أهم المدارس الجغرافية التى سادت فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشـرين كمدرسة الحتمية البيئة والامكانية، واللاندسكيبية، وكذلك التأكيد على أبرز المناهج التى استخدمت فى هذه الفترة كالمنهج التاريخى فى دراسة الجغرافيا التاريخية والحضارية والمنهج الإقليمى.

أما القسم الثالث فقد خصص لدراسة أهم الاتجاهات الفلسفية والمنهجية المعاصرة، إبتداء من الثورة الكمية واستخدام النماذج الجغرافية في الستينات واعتماد الجغرافيا على المنهج العلمى الموضوعى فى تحليل المشكلات الجغرافية فى هذه الفترة إلى ظهور الإتجاهات الإنسانية والراديكالية المضادة للموضوعية في السبعينات. حيث اهتم الاتجاه الإنسانى بالتأكيد على مبدأ الذاتية وإتباع المنهج المعرفي المعتمد على الخبرة الانسانية وعملت الجغرافية الراديكالية على نقد الجغرافيا الموضوعية وأكدت على الاهتمام بالموضوعات ذات العلاقة الاجتماعية، واعتمدت فى تحليلها للمشكلات الجغرافية على الايدولوجيات الراديكالية.

التراث الجغرافى

إن أهمية الجغرافيا بوصفها فرعا من فروع المعرفة تعتبر قديمة قدم التاريخ نفسه، حيث ظهرت الكتابات الجغرافية في مؤلفات الحضارات القديمة كما هو واضح فى كتابات اليونانين القدماء أمثال هيرودوت (484-425 قبل الميلاد)، وارتستوثنيس (276-194 قبل الميلاد) فنجد أن هيرودوت بالرغم من إشتهاره مؤرخا إلا أن الكثيرمن أعماله تميزت بالطابع الجغرافى واتسمت كتابته بالمنهج التاريخى أو ما عرف فيما بعد بالجغرافيا التاريخية. وقد كانت إسهاماته مبنية على ملاحظاته الشخصية أثناء سنوات ترحاله. فقد كتب عن جغرافية ليبيا ومنطقة البحر المتوسط موضحا الملامح الجغرافية الطبيعية والبشرية التى تميزت بها هذه المناطق، أما اراتستوثنيس فقد كان من بين أهم أعماله الجغرافية هو حسابه لمحيط الكرة الأرضية، وبذلك وضع أساس المنهج الرياضى فى الجغرافيا. وقد أسهم أيضا بتقسيم العالم إلى أقاليم مختلفة وحدد مجال الجغرافيا فى دراسة الأرض كموطن للإنسان الذى اتبع من بعده فى الدراسات الجغرافية.

وفي العهد الروماني كان لكتابات استرابو (64 قبل الميلاد - 20 ميلادى) الفضل فى نقل التراث الجغرافى القديم وحفظه، هذا بالإضافة إلى أنه زودنا بوصف دقيق وشامل للعالم كما عرف في ذلك الوقت. أما بطليموس (150 ميلاد) فقد أعد دليلا للجغرافيا مكونا من ثمانية مجلدات ناقش فيها المساقط المختلفة للخرائط وخطوط الطول والعرض ورسم بعض الخرائط لأجزاء متعددة من العالم.

وفى فترة العصور الوسطى سيطرت الكنيسة على أوربا وساد نوع من الركود العلمى بصفة عامة وفى الجغرافيا بصفة خاصة إلا ما كتبه بعض الرحالة أمثال ماركو بولو.

الجغرافية الاسلامية

وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا تمر بعصر الظلام فقد نشطت الحركة العلمية والفكرية فى العالم الإسلامي. وقد لعب الجغرافيون فى هذه الفترة دورا بارزا فى إثراء التراث الجغرافى وتطويره. فقد أسهم الجغرافيون المسلمون بالعديد من الاضافات فى مجالات الجغرافيا المختلفه خلال الفترة من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر. فنجد أن الرحالة ابن حوقل فى القرن العاشر يكتب عن سكان ساحل شرق أفريقيا الذين يعيشون جنوب خط الاستواء الذى ظنه الإغريق أنه من مناطق اللامعمورة.

والمسعودي ذهب إلى ما يعرف اليوم بموزمبيق ووصف الظواهر المناخية التى تسود فى ذلك الإقليم. والمقدسى قسم العالم إلى أربعة عشر اقليما مناخيا. والبيرونى فى القرن الحادى عشر كتب عن بعض الظواهر الجيومورفولوجية. كظهور الحصى فى السهول الفيضية التى تقع الى الجنوب من جبال الهملايا وقد ضمن ذلك فى كتابه عن جغرافية الهند. وكذلك نجد أن ابن سينا يتحدث عن عملية التعرية النهرية فى جبال وسط أسيا.

وقد كان للإدريسى الفضل فى تطوير خريطة بطليموس وتصحيحها وقد كان لخريطة الإدريسى والمعلومات الجغرافية التى ضمنها فى كتابه "نزهة المشتاق فى اختراق الافاق" دور كبير فى تطوير فن الملاحة وعمليات الكشوف الجغرافية التى جاءت فيما بعد.

أما في القرن الرابع عشر فقد برز الرحالة ابن بطوطة الذى قضى حوالى ثلاثين سنة فى التجوال فى البلاد الاسلامية ووصل الى روسيا وبلاد الهند والصين شرقا وأسبانيا غربا وعبر الصحراء الى تمبكتو على ضفاف نهر النيجر. وقد جمع فى رحلاته هذه معلومات جغرافية هامة عن طبيعة هذه البلدان وعن الشعوب التى تقطنها. وفى نفس القرن ظهر العلامة ابن خلدون الذى كتب فى مقدمته للتاريخ عن علاقة الظروف الطبيعية بإختلاف الثقافات والحضارات. وتحدث عن النظم الاجتماعية واختلاف العادات والطباع بين الحضر والبدو. ووضع نموذجا نظريا لنمو الدول والحضارات ورقيها ثم انحدارها واندثارها. وبذلك يمكن القول بأن ابن خلدون هو أول عالم يركز على دراسة العلاقة بين الانسان والبيئة.

عصر الكشوف الجغرافية

مع بداية القرن الخامس عشر بدأت حركة الترجمة والبحث فى الجغرافيا القديمة والإسلامية والاستفادة منها فى موجة الكشوف الجغرافية التى قام بها البرتغاليون والأسبان. وقد كان أهم نتائج هذه الفترة هو رحلة فاسكو دجاما حول رأس الرجاء الصالح عبر المحيط الهندى مارا بساحل شرق افريقيا. ثم استمرار رحلات البرتغاليين الى اندونيسيا وإلى جزر شرق آسيا. وكذلك كان لرحلة كولومبوس عبر المحيط الاطلنطى ووصوله إلى أمريكا الوسطى والجنوبية دور كبير فى زيادة المعرفة الجغرافية بالعالم الجديد ثم جاءت رحلة ماجلان لتؤكد كروية الأرض. ونتيجة لهذه الرحلات جمعت العديد من المعلومات الجغرافية عن العالم وبدأ العلماء فى تصنيفها وتوقيعها على الخرائط واستنتاج الحقائق العلمية. وتثبيتها وقد كان من أهم إسهامات هذه الفترة هو تطور علم الخرائط ومساقطها وكذلك تقدم فن الملاحة وتحديد المواقع الجغرافية بواسطة خطوط الطول والعرض.

وهكذا يمكن القول أنه بالرغم من تميز الجغرافيا القديمة والإسلامية وما لحقها فى فترة الكشوف الجغرافية بأنها قد اتسمت فى مجملها بالطابع الوصفى إلا أنها لم تخل من التحليل والتعليل ومحاولة الوصول إلى الحقائق العلمية الثابتة وتعميمها. هذا إلى جانب استخدام المنهج الرياضى فى رسم الخرائط وتحديد مواقع الظواهر الجغرافية وفى قياس المسافات وقد أسهمت

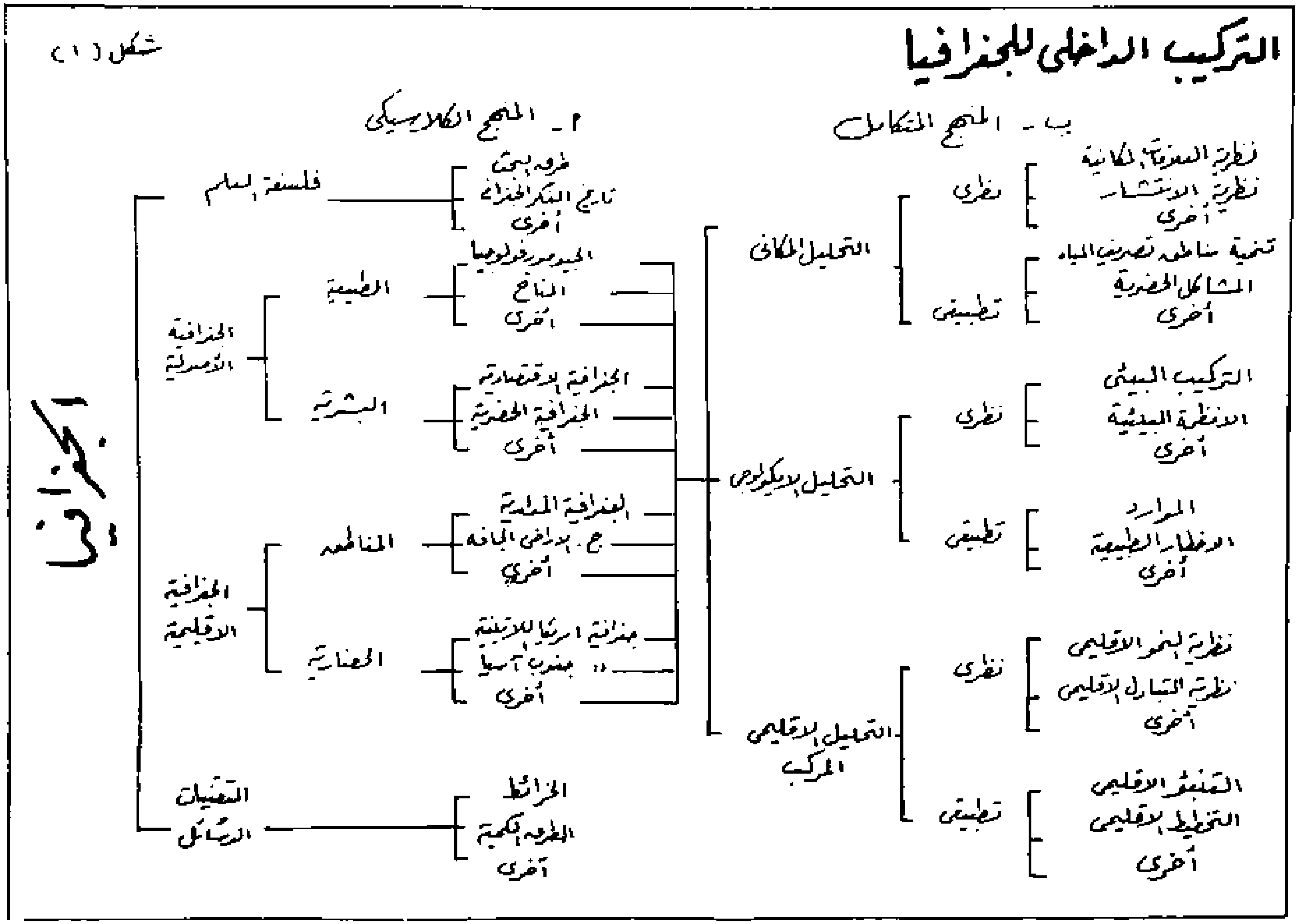
هذه الكتابات فى إثراء المعرفة الجغرافية عن الظواهر الطبيعية وعن الشعوب والحضارات المختلفة فى العالم[1].

بدايات الجغرافية الحديثة

يرجع الفضل فى تنظيم المعرفة الجغرافية الى فارينوس (1650) الذى قسم الجغرافيا إلى فرعيـــــن رئيسين الجغرافيا العامة والخاصة. الأول يهتم بدراسة الظواهر الكونية بما فيها الأرض ويركز على اكتشاف القوانين العامة التى تحكم هذه الظواهر. بينما الفرع الثانى يدرس الأقاليم الجغرافية المختلفة على سطح الأرض والتى تتميز بخصائص مختلفة نتيجة للتفاعلات التى تحدث بين الإنسان والبيئة وقد أوضح فارينوس تقسيما آخر للجغرافيا حيث قسمها ايضا الى فرعين هما الجغرافيا الطبيعية والبشرية. وبذلك يبدو أن فارينوس كان يقترح تقسيم الجغرافيا الى القسمين الرئيسين المتعارف عليهما اليوم من قبل الجغرافيين المحدثين وهما الجغرافيا العامة (الموضوعية أو الأصولية) وهى التى تهتم بالظواهر الجغرافية العامة والتى يتم تفسيرها بقوانين عامة، والجغرافيا الخاصة (الجغرافيا الأقليمية) والتى غالبا ما تكون وصفية لأنها تدرس الخصائص المميزة للأقاليم الجغرافية المختلفة التى يلعب الانسان دورا كبيرا فى تشكيلها. (انظر شكل 1).

وإذا كان فاريونس قد بين البناء الداخلى للجغرافيا كعلم فإن أمانويل كانت (1724-1804) قد وضع الأسس النظرية للجغرافيا ضمن الاطار العام لفلسفة العلوم المعاصرة، حيث أوضح بأن الاشياء المتعلقة بالفضاء أو الحيز المكانى هى من اختصاص العلوم الجغرافية.

ومنذ تلك الفترة أصبحت هذه الفكرة (دراسة الأشياء المتعلقة بالمكان) هى المبرر الاساسى لعلم الجغرافيا فنجد أن هارتشورن (Hartshorne 1939)[2] يسير فى طريق الجغرافى الألمانى هتنر Hettner ويوكد على النظام أو المنهج الذى وضعه كانت Kant مبرزا فى دراسته المشهورة طبيعة الجغرافيا بأن دراسة الفضاء أو الحيز المكانى والاختلافات المكانية Areal Differentation هما أساس أو محور الجغرافيا[3].



Source : P. Haggett , Geography Amodern Synthesis , 1983 , p. 615

وإذا كان دور كانت Kant يتمثل فى إيجاد المبرر الفلسفى لعلم الجغرافيا فإن همبولدت (1769-1859) وريتر (1779-1859) العالمين الألمانيين كانا قد أعطيا الجغرافيا طابعها أو شكلها العلمي فنجد أن همبولدت الذى كان مهتما بالتاريخ الطبيعى وبدراسة الظواهر الطبيعية والبيولوجية قد أسهم بالعديد من الملاحظات العلمية الدقيقة حول اختلاف النباتات الطبيعية وعلاقتها بارتفاع السطح، وكذلك تحديده للمناطق الحرارية فى العالم. وقد دون هذه الإسهامات فى أبحاثه الخاصة برحلاته الاستكشافية لأمريكا وفى عمله المشهور الكون Cosmos.

أما أبحاث ريتر فقد أكملت أعمال همبولدت وذلك بتركيزها على الخبرة الانسانية فى إطارها الإقليمى. وقد قسم العالم إلى أقاليم طبيعية وقام بوصفها ثم حاول البحث عن معانى هذه التقسيمات الأقليمية بالنسبة للمجتمعات التى تقطنها. أى أنه حاول دراسة الأرض كموطن للانسان.

إن النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد شهد تطور كبيرا فى العلوم الطبيعية البيولوجية مما دعا الجغرافيين الى التركيز على دراسة الظواهر الطبيعية كالمناخ، والنباتات، ومظاهر سطح الارض أو علم الجيمورفولوجيا. وبذلك فإن تأهيل أو تدريب الجغرافيين فى هذه الفترة كان منصبا نحو طرق البحث فى مجالات الجيولوجيا وعلوم الأرض الأخرى فى حين أن الجغرافيا البشرية والأقليمية كما ظهرت فى كتابات رتير بدأت تختفى من الأدبيات الجغرافية وقد ظهرت صرخات فى هذه الفترة تنادى بجعل الجغرافيا علما من العلوم الطبيعية. وبما أن السلوك البشرى غير قابل للاخضاع للقوانين الطبيعية والعامة فقد رأى بعض الجغرافيين فى هذه الفترة عدم دراسة الانسان فى مجال الجغرافيا.

ومع ذلك فقد استمر فريق من الجغرافيين فى إصرارهم على ضرورة دراسة علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية فنلاحظ أن مارش (1801-1882) قد أكد على موضوع المحافظة على الموارد الطبيعية وأثار سؤالا مهما أصبح محور أبحاث الجغرافيين فيما بعد وهو كيف غير الانسان وجه سطح الأرض؟.

المدرسة الحتمية البيئية Environmental Determinism

بالرغم من أن فكرة الحتمية البيئية وجدت منذ القدم عند الاغريق إلا أنها فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أخذت الطابع العلمى. والسبب هو ظهور أفكار داروين الخاصة بنظرية التطور الطبيعى، وكذلك آراء نيوتن حول العلاقات السببية فقد أدى استخدام الجغرافيين لهذه الاراء العلمية فى دراسة الظواهر البشرية إلى ظهور الحتمية البيئية من جديد.

فمثلا نلاحظ أن راتزل الجغرافى الألمانى (1844-1904) يشير فى أبحاثه على أثر البيئة الطبيعية فى السلوك الإنسانى فنجده يشبه الدولة بالكائن الحى وبأنها تنمو وتترعرع ثم تتدهور وتموت ولكنه لم يغفل دور العوامل الثقافية والتاريخية فى دراسته للظواهر الجغرافية البشرية(4).

وقد أثرت أفكار راتزل فى الجغرافيين الأمريكين الذين برزوا فى بداية القرن العشرين فسامبل Semple تقول بأن السلوك الإنسانى هو نتاج للظروف البيئية المحيطة بالإنسان وديفز Dvais يؤكد ثنائية المنهج فى الجغرافيا حيث تدرس الجغرافيا الطبيعية المظاهر الطبيعية بينما تدرس الجغرافيا البشرية أثر الظروف الطبيعية على الانسان وأنشطته المختلفة. أما هانتنقتون Huntington فهو يدرس أثر المناخ على التاريخ والسجتمع البشرى.

المدرسة الإمكانية Possibilism

لقد استمر الاتجاه الحتمى البيئى فى الدراسات الجغرافية فى أوربا إلى مجئ فيدال دولابلاش (1845-1918) مؤسس الجغرافيا الفرنسية الحديثة حيث حدد الأهداف الجديدة للجغرافيا. وبالرغم من أن آراء فيدال قد نقحت وعدلت وآراء أخرى جديدة أضيفت إليها إلا أنه يستحق التقدير لأنه على الاقل فى فرنسا قد غير موجة الحتمية البيئية. ففيدال يقول بأن الارض لا تملى على الانسان سلوكه ولكنها تقدم له الفرص وهو الذى يختار منها ما يشاء. ولما كان فيدال فى رفضه للحتمية البيئية دائما يتكلم عن الامكانية او الاحتمالية البيئية فقد أطلق على وجهة نظره "الإمكانية". ولكن فيدال لم يعن بأن الإنسان له حرية مطلقة بل إن اختياراته مقيدة بقيم ونظم

مجتمعه والتقنية المتوفرة لديه، أو بما أسماه فيدال "طريقة أو نمط الحياة في مجتمعه" "Genere de Vie"[5].

المدرسة اللاندسكيبية Landscape School

إن ردة الفعل القوية والمؤثرة للحتمية البيئية في الولايات المتحدة جاءت من الجغرافي ساور (C. Saure, 1952) الذى طور المنظور اللاندسكيبي أو دراسة مظهر "سطح الأرض. وأكد بأن الجغرافيا يجب أن تركز على دراسة الاختلافات المكانية أو بأنها العلم الذى يدرس العلاقة بين الاشياء والناس الذين يعطون للاماكن المختلفة طابعها المميز "Chorology" ولكى يربط بين العناصر الطبيعية والبشرية اقترح استخدام مفهومى اللاندسكيب الطبيعى "The Natural Landscape" واللاندسكيب الحضارى او الثقافى "The Cultural Landscape" وأشار بأن دور الجغرافى هو دراسة وتحليل عملية الانتقال من اللاندسكيب الطبيعى الى اللاندسكيب الثقافى أو الحضارى[6].

البعد التاريخي The Historical Dimension

بالرغم من أن بعض الجغرافيين يرون بأن الجغرافيا يجب أن تركز على دراسة خصائص المكان فى الوقت الحاضر، إلا أن هناك فريقا آخر يرى بأنه لابد من دراسة الظواهر الجغرافية وتطورها عبر الأزمنة المختلفة ويحدد مجال الجغرافيا التاريخية لدراسة مثل هذه التغيرات المكانية. هنا أيضا نجد "ساور" يؤكد على المنهج التاريخي فى دراسة الظواهر الجغرافية. فبينما يسعى الإتجاه اللاندسكيبي الى التركيز على شكل ومحتوى الظواهر المادية أو أنماط الإستيطان البشرى فى الاقاليم المختلفة والتى يمكن رسمها وتحديدها على الخرائط كالمظهر الخارجى للمساكن، وتوزيع المستوطنات، وأنواع النظم الزراعية، فإن الاتجاه التاريخي فى الجغرافيا يعمل على تتبع أصول مثل هذه المظاهر الحضارية والأنشطة الاقتصادية وطرق انتشارها وتطورها كدراسة عمليات استئناس الحيوانات واستزراع النباتات المختلفة[7].

المنهج الاقليمى The Regional Method

الاتجاه الآخر الذى ظهر فى الثلاثينات من هذا القرن هو المنهج الاقليمى وقد ادى الى ظهور هذا الاتجاه محاولة الجغرافيين التخلص من الحتمية البيئية من ناحية تقسيمهم للجغرافيا الى قسمين رئيسيين الجغرافية الاصولية أو الموضوعية، والجغرافيا الأقليمية وبينما تبحث الاولى فى مجموعة من الظواهر نتجت عن نوع واحد من المؤثرات أو العمليات والهدف هو الوصول الى قوانين او نظريات عامة، فإن الجغرافيا الأقليمية تسعى الى تفرد الأقاليم وتميزها عن بعضها او كما أسماه هارتشورن بالاختلافات المكانية بحيث يكون كل أقليم له خصائصه الجغرافية المتميزة طبيعية كانت أو بشرية.

واكثر الأقاليم شيوعا تلك التى تقوم على ظاهرة واحدة أو مجموعة من الظواهر المترابطة، مثل الأقاليم المناخية، والاقتصادية، والحضارية وهناك نوع آخر من الأقاليم هو الذى يقوم على تجانس التركيب الداخلى أو الوظيفة التنظيمية للأقليم كالمراكز التجارية فى المدن. مثل هذه الأقاليم تسمى الأقاليم الوظيفية أو المركزية لوجود مركز للأقليم يرتبط ببقية أجزاء الأقليم بنظام تبادل داخلى. والأقاليم قد تختلف فى الحجم من المنطقة أو الحى الصغير الى الأقاليم الكبرى كأمريكا اللاتينية وجنوب آسيا(8).

الاتجاهات الفلسفية والمنهجية المعاصرة

إذا حاولنا تحديد مسار الفكر الجغرافى فى النصف الأول من القرن العشرين فإنه يمكننا أن نلاحظ بأن الجغرافيا سارت فى مسارات منهجية متعرجة، فنجد أنها سيطرت عليها الحتمية البيئية فى بداية القرن الحالى وذلك لمحاولة إستخدام الطرق العلمية المستنبطة من العلوم الطبيعية فى تحليل الظواهر البشرية. ثم كرد فعل لهذا الاتجاه ظهرت النظرة الإمكانية وقد أدى هذا إلى أتباع مناهج مستمدة من علم الأنثربولجيا الثقافية والتاريخية وذلك بالتأكيد على تفرد الأقاليم الحضارية واختلاف بعضها عن البعض الآخر وكذلك بإبراز التغيرات التى تحدث فى تلك الأقاليم عبر فترات التاريخ المختلفة.

لكن النصف الثانى من القرن العشرين شهد تطورات جذرية فى فلسفة ومنهج الجغرافيا، فحتى منتصف الخمسينات كانت الجغرافيا الأقليمية والبشرية بصفة خاصة أدبية أكثر منها علمية. الحقائق كانت دائما تقرر على ضوء الملاحظات العابرة فى الحقل بدلا من القياسات الدقيقة، والعلاقات السببية كانت تعتمد على الحدس بدلا من اختبار الفرضيات. والدراسات الأقليمية التركيبية الكبرى التى كان يسعى إليها الجغرافيون كانت بمثابة قطع أدبية جميلة على أقليم معين بدلا من عمل يمكن ان يستنتج منه التعميمات والنظريات العلمية.

والنظرية الوحيدة المتعلقة بالانماط المكانية والموقع هى "الحتمية البيئية" وما قابلها فى مرحلة لاحقة من "الامكانية" واللتان لازالت أثرهما موجودة فى بعض كتب الجغرافيا الأقليمية. والجغرافيا البشرية التطبيقية كانت محصورة فى بعض العلاقات المهمة الخاصة بتخطيط المدن والمحافظة على البيئة وعملية حصر الموارد.

ولكن ليست كل الجغرافيا البشرية فى هذه الفترة عديمة الفائدة بالطبع إن عملية إيجاد الاسباب والآثار المتهلهلة المبنية على اساس الحتمية البيئية قد أدت بالتأكيد الى الخروج بنتائج خاطئة. ولكن العديد من الجغرافيين البشريين الذين ظهروا فى النصف الأول من القرن العشرين اكتسبوا مهارات فائقة فى الدراسات الميدانية، وحسا مرهفا لواقع علاقات الانسان بالبيئة مماجعلهم أقدر من العديد من المتخصصين فى مجالات العلوم الأخرى فى معرفة الحياة الواقعية عن قرب. وعلى أية حال فإن الجغرافيا البشرية فى منتصف الخمسينات بقيت إلى حد كبير غافلة عن الطرق العلمية الشائعة الاستعمال فى العلوم الأخرى كالاقتصاد والاجتماع.

الثورة الكمية The Quantitative Revolution

جاءت الثورة الكمية نتيجة لجهود بعض الجغرافيين السباقين الذين بدأو بتجريب الطرق الاحصائية فى الجغرافيا، وبعد ذلك تطورت الى طريقة جديدة ومشهور تعمل على القياس وإيجاد العلاقات التجريبية بين الظواهر الجغرافية المختلفة. وقد ساعد على انتشار هذه الطريقة توفر وسهولة الحصول على الكمبيوتر الذى مكن الجغرافين من التعامل مع حجم كبير من المعلومات والارقام. إن أول كتاب للطرق الاحصائية للجغرافين هو كتاب قريقورى الطرق الاحصائية

والجغرافي (Gregory, 1963)[9]. وقد أتبع بالكثير من الكتب في هذا المجال مثل كتاب كول وكنق (Cole and King, 1968)، الجغرافيا الكمية[10] وكتاب كنق (King, 1969) التحليل الاحصائي والجغرافيا[11]. وهناك العديد من الكتب الأخرى في هذا الاتجاه لا يسع المجال لذكرها هنا وخلال عقد من الزمن غيرت الثورة الكمية بدرجة ملحوظة مسار البحث في الجغرافيا البشرية[12].

دور النماذج في الجغرافيا Models in Geography

أن وصف الجغرافيا الجديدة في الستينات بأنها كمية أو احصائية فقط هو عملية تبسيط أو تمييز لهذه الفترة بطابع معين، ولكن في الحقيقة فقد تلازم اهتمام الجغرافين بالارقام والطرق الاحصائية باكتشاف النماذج الجغرافية (Chorely and Haggett, 1967) وعملية بناء النماذج في حد ذاتها مرتبطة ارتباطا وثيقا بتطور النظرية المكانية Spatial Theory، لأن النماذج الرياضية هي في العادة صورة تطبيقية او عملية لبناء نظري[13]. والاهتمام الجغرافي المعاصر بعملية التنظير يرجع الى نفس الفترة التي قامت فيها الثورة الكمية. وفي هذه الفترة ظهرت مجموعة من الاعمال ذات تأثير بالغ في النظرية الاقتصادية المكانية Spatial Economic theory ومن اهمها كتاب ايزارد علم الأقاليم Regional Science (Isrand, 1960)[14] وقد وضع عمل هذا المؤلف مع عمل كرستاللر الكلاسيكي (Christaller, 1933) حول الأماكن المركزية Central Places الأساس النظري الجديد للجغرافيا الاقتصادية[15].

إن الاهتمام المتزايد بطرق ومناهج البحث وفلسفة علم الجغرافيا توجت بعمل هارفي[16] Harvey. D. 1969. Explanation in Geography الذي أثار النقاش حول موضوع طبيعة وهدف الجغرافيا الذي تطرق له هارتشون (Hartshorne, 1939: 1959) من قبل وزاد في إثراء هذه المناقشة وبلورتها.

وهكذا نلاحظ بأن الجغرافيا البشرية في الستينات تميزت بنضجها وتنوعها بالرغم من التصاق مدلول الكمية بها فنجد أن المسار الرئيسي للتحليل الجغرافي الكمي قد تطور بدرجة

ملحوظة مستقلا عن التوجيه النظرى والدافع الاساسى وراء ذلك كان هو التحليل المكانى بدلا من الاحصاء أو الرياضيات (انظر شكل 1).

إن تطور النماذج واختبارها قد أوجد نوعا من العلاقة بين الاتجاهين لكن معظم التحليل الكمى كان مجرد أعمال تجريبية بدون توجيه من أو اضافة إلى الاسهامات النظرية كما أن عملية الخلط بين الطرق الاحصائية والاتجاه النظرى كانت محدودة حيث لم تتم إلا فى دراسة المستوطنات كأماكن مركزية Central Places والتى تم فيها الجمع بين نظرية الموقع Location Theory والطرق الاحصائية.

إن معظم جهد الثورة الكمية قد استغل فى تطور أساليب البحث العلمى. ولكن مع منتصف الستينات بدأ الانشغال بالطرق الاحصائية، والنماذج والنظريات يتبلور فى طريقة جديدة متكاملة لمعالجة محتوى أو جوهر الموضـــوع إن أول المحــاولات للربط بين الطرق الكمية والنظرية فى الجغرافيا قام بها بونج (Bunge, 1962)[17] وهاقت (Haggett) حيث طورا الموضوع ليشتمل على التحليل الرياضى لأنماط الموقع في إطار التنظيم المكانى البشرى[18].

وقد طور هذا الموضوع فيما بعد من قبل العديد من الجغرافيين مستخدمين نظرة أوسع تشتمل على البيئة الطبيعية.

إن هذه الطرق العامة المبنية على البحوث الكمية والنظرية والنماذج الجغرافية والتى ظهرت فى فروع العلم المختلفة، كالنقل وجغرافية السكان، والتوطن الصناعى، والجغرافيا الحضرية ظهرت فى الكتب المنهجية الحديثة التى بدأت تدرس فى الجامعات فى بداية السبعينات. إن التركيز فى فترة الثورة الكمية فى مجال الجغرافيا البشرية كان على طرق البحث العلمية بدلا من المحتوى أو مادة الموضوع. وإن شهرة المواضيع التى اعطيت اهتماما خاصا كانتشار الابتكارات والايكولوجية الاجتماعية للمدن وتحديد الأقاليم المختلفة يرجع الى توفر الطرق المناسبة وبرامج الحاسب الآلى وليس للاهتمام بمادة المواضيع فى حد ذاتها. ان تطبيقات الجغرافيا البشرية فى مجالات التخطيط الأقليمى، والنمو الحضرى كانت دائما تمثل فرص توظيف بعض التقنيات أو الوسائل البحثية المفضلة والتى ربما تكون غير مناسبة بالنسبة للمشكلة

المدروسة. إن رواد الحركة الكمية لم يكونوا من بين المشاركين فى اثارة الاهتمام بالمواضيع التى لها علاقة بالسياسات العامة فى نهاية الستينات(١٩).

هذا وقد اعتمد هذا الاتجاه الذى ساد فى الستينات على التخصص العلمى الدقيق والاستفادة من طرق البحث العلمى الموضوعي المتبعة فى العلوم الأخرى وخاصة فى العلوم الطبيعية. (انظر شكل 2).

وقد كان هذا المنهج مبنيا على النظرة الفلسفية الوضعية Positive Approach لدراسة الظواهر الجغرافية. حيث اتبع الباحثون طرق البحث العلمى الموضوعى المعتمدة على المشاهدة والملاحظة الحسية للظواهر الطبيعية والبشرية، وتحديد مشكلة البحث، ووضع الفرضيات واختبارها عن طريق جمع البيانات وتحليلها بقصد الوصول الى نظريات وقوانين عامة تحكم هذه الظواهر.

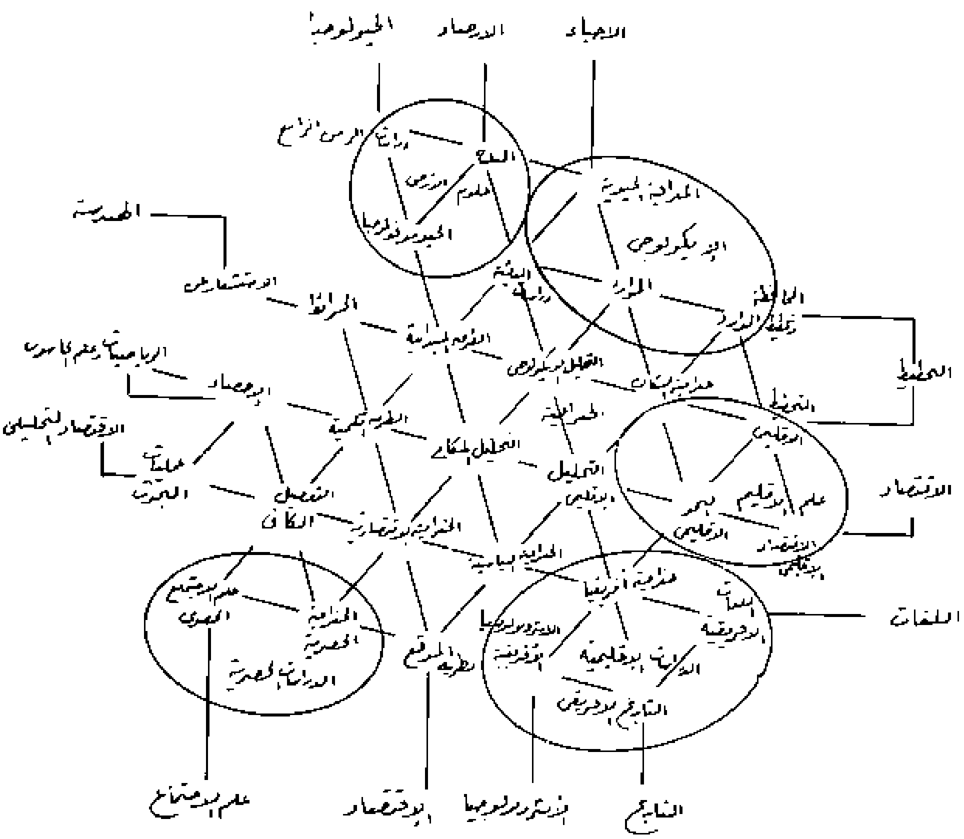
الاتجاه الايكولوجى

إن التحليل الايكولوجى أو دراسة العلاقات بين الانسان والبيئة Man-Environment Relationships تمتعت باهتمام متجدد عندما برز الاهتمام بالمشاكل البيئية خلال الستينات وبداية السبعينات فقبل تجديد هذا الاتجاه أهمل التحليل الايكولوجى Ecological Analysis نتيجة لما حدث فى بداية القرن العشرين. فدراسة العلاقات بين الانسان والبيئة كانت أهم مواضيع البحث الجغرافى فى بداية القرن العشرين ولكن نتيجة لإفراط الجغرافيين فى عملية وصف وتفسير السلوك البشرى بمصطلحات مأخوذة من البيئة الطبيعية، وهذا ما عرف بين الجغرافيين بالحتمية البيئية فقد أصبح كل النشاط والسلوك البشرى يعتبر نتيجة للعوامل الطبيعية وأهملت العوامل الاجتماعية والثقافية الأخرى.

ونتيجة لهذا الاتجاه تدهورت سمعة الجغرافيا فى تلك الفترة بالإضافة الى ذلك فإن العديد من الجغرافيين نتيجة لتخوفهم من الوقوع فى هذا المأزق وهو محاولة تعليل أو تفسير السلوك البشرى عن طريق وجود مسببات بيئية، فلقد لجأوا الى التركيز على الوصف بدلا من محاولة التحليل والتنبؤ إلى حين مجئ الثورة الكمية والاتجاه الايكولوجى الجديد.

شكل (2)

علاقة الجغرافية بالعلوم الأخرى



Source : P Haggett , Geography A modern Synthesis , 1983 , P 0 0

ففى اواخر الستينات اصبح التحليل الايكولوجى اكثر رواجا نتيجة لوقوع الكوارث البيئية Natural Disaster، كالتصحر والتلوث، وانجراف التربة، وما نتج عنهما من مآس انسانية[20].

وبالرغم من قدم النظرة الايكولوجية حيث نجد أن افلاطون وارسطو قد كتبا عن فكرة الطبيعة المصممة Design Nature والسبب النهائى Final Cause، وظهرت فى الكتابات الدينية المسيحية فى عملية البحث عن التكامل فى التصميم الكونى او البيئى، وكذلك فى كتابات همبولدت حول الكون Cosmos ودارون حول نسيج الحياة Web of LIfe (Glacken, 1967)[21].

إلا أن المصطلح العلمى Ecology كان قدم بواسطة العالم البيولوجى هيكل (Haekal, 1870)، واقتصر استخدامه فى علم الاحياء Biology ولكن مع بداية القرن العشرين بدأ استعماله فى الجغرافيا وفى الانثروبولوجيا. حيث نجد باروز (Barrows, 1923) يرى بأن مجال الجغرافيا هو دراسة البيئة البشرية Human Ecology[22]، وستوارد (Steward, 1930) يحدد منهج الإيكولوجيا الحضارية Cultural Ecology والذى بدأ فى استخدامه العديد من الجغرافيين أمثال وقنر ومايكسل Wagner and Mikesell إلا أن ظهور نظرية الانظمة العامة General System Theorey وقبول اتباع منهج النظام البيئى Ecosystem فى منتصف الستينات أعطى الجغرافيين الفرصة لدراسة العلاقة بين الانسان والبيئة فى نظام متكامل[23]. وقد أدى هذا النوع من الدراسات إلى وحدة المنهج فى الجغرافيا متمثلة فى الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية (شكل 2).

الاتجاه الانسانى

إن الجغرافيا كعلم من العلوم الاجتماعية لابد وأن يكون لها نصيب من الدراسات الانسانية. إن أنصار هذا الاتجاه يرون بأن الجغرافيين الذين يقلدون العلوم الطبيعية والمنهج الموضوعى يتجاهلون او يرفضون العلاقة بين الجغرافيا والعلوم الانسانية. ويؤكدون على أن المعرفة الجغرافية كانت دائما ميالة للآداب كما هى مرتبطة بالعلوم التطبيقية. وقد كان ظهور الجغرافيا الانسانية وتطورها فى السبعينات، كردة فعل للاتجاه الكمى فى الجغرافيا وعملية الإفراط

فى محاولة تقنين السلوك البشرى والخروج بأنماط عامة بالرغم من وجود الاختلافات الثقافية والبيئية والزمنية للجماعات البشرية. كذلك عدم ارتياح الجغرافيين (الانسانيين) لاستخدام المنهج العلمى الموضوعى فى جانب الدراسات الانسانية ومحاولة العلماء الوصول الى نظريات وقوانين عامة تفسر السلوك الانسانى مما أدى ببعض الجغرافيين إلى التطرف فى استعمال النماذج الرياضية والهندسية، والابتعاد عن فهم جوهر وحقيقة الانسان.

هذا وقد اعتمدت الجغرافيا الانسانية Humanistic Geography على المذاهب الفلسفية للمعرفة مثل المثالية Idealism، وعلم الظاهرات Phenomenology والوجودية Existentialism والعامل المشترك بين هذه النظريات الفلسفية هو تركيزها على الذاتية Subjectivity بدلا من الموضوعية التى تعتبر أساس الفلسفة الوضعية[24].

وتركز الجغرافيا الانسانية على دراسة أحوال الناس وظروف معيشتهم ومن ثم فهى ليست بالدرجة الاولى من علوم الارض، ولكنها فرع من فروع الجغرافيا لانها تنظر او تتأمل وتعتمد على شواهد ذات صلة أو لها علاقة بفروع الجغرافيا الأخرى. هذا وقد حدد توان (Tuan, 1976) مجموعة من المواضيع يمكن دراستها من منظور الجغرافيا الانسانية منها: المعرفة الجغرافية، والأقليم والمكان، والازدحام والخلوة او العزلة، والانماط المعيشية والاقتصادية والدين[25].

وطريقة البحث المتبعة فى معالجة هذه المواضيع تتم عن طريق الاعتماد على الخبرة الانسانية، والادراك والمعرفة. ويرى توان Tuan بأن الجغرافيا الانسانية تساهم فى العلم عن طريق لفت الانتباه الى بعض الحقائق التى لا تزال حتى الان ليست فى متناول مجال أو دائرة العلم. وهى تختلف عن الجغرافيا التاريخية فى أنها تؤكد على أن الناس يصنعون أساطيرهم التاريخية بأنفسهم.

والجغرافى الانسانى يجب ان يكون لديه دراسة أو معرفة بالفكر المقنن أو المنظم والفلسفة، وأعماله تخدم المجتمع بالضرورة عن طريق رفع مستوى الوعى والادراك لدى المواطنين.

هذا وقد اتخذت الجغرافية الانسانية اتجاهيين مختلفين فى الادبيات الجغرافية، النوع الأول يمثل المنظور الانسانى العام المبنى على مبدأ الذاتية بدون الاشارة الى أى فلسفة معينة. أما النوع الثانى من الادبيات الجغرافية الانسانية فهو مبنى على احدى الفلسفات الثلاث المثالية، أو علم الظواهر، أو الوجودية. وكل هذه الاتجاهات الثلاثة كانت مضادة للفلسفة الوضعية والمنهج الموضوعى فى الجغرافيا.

أما جذور الاتجاه الانسانى العام فى الجغرافيا فترجع الى كتابات كيرك (Kirk, 1951) حيث فصل فى مقاله الاول عن الجغرافيا التاريخية ومفهوم البيئة السلوكية - بين ما يسمى "بالبيئة الظاهرية" و"البيئة السلوكية" فبينما تركز البيئة الظاهرية على الظواهر الطبيعية الموجودة فى الواقع، فإن البيئة السلوكية تمثل التصور العقلى للانسان عن البيئة المحيطة به بناء على شعوره، وانطباعاته، وثقافته الخاصة(26).

هذا وقد طور هذا الاتجاه فيما بعد باعتماده على المنهج الادراكى المستمد من علم النفس. فنجد أن لوينثال (Lowenthal, 1961) ينادى بما أسماه "بالجغرافيات الخاصة" المعتمدة على الخبرة الانسانية وعلى القدرات الانسانية للتخيل وقد حاول تطبيق مثل هذا المنهج فى دراسة المظاهر اللاندسكبية وابراز الصور الجمالية فى الطبيعة(27).

هذا وقد تطور هذا الاتجاه وتشعب الى عدة فروع واتخذ مسميات متعددة مثل البيئة السلوكية، والجغرافيا السلوكية، والبيئة الانسانية وأيا كانت هذه المسميات فالهدف الاساسى هو التركيز على علاقة الانسان بالبيئة من وجهة نظر الخبرة الانسانية والمعرفة الادراكية.

هذا واستفاد بعض الجغرافيين من استخدام هذا المنهج المعرفى والادراكى فى دراسة المخاطر الطبيعية وانطباعات السكان المهددين بهذه المخاطر وكيفية طرق تأقلمهم وتكيفهم مع هذه الظروف الصعبة فى وضع السياسات والحلول لمثل هذه المشاكل (Burton, Ietal, 1978)(28).

أما بالنسبة للاتجاهات الانسانية المبنية على فلسفات محددة، فنجد مثلا هاريس (Harris, 1978) يتحدث عن العقل التاريخى ودوره فى الكتابة الجغرافية. حيث يؤكد على ضرورة قدرة الجغرافى على فهم الخبرة الانسانية المتمثلة فى أقليم معين بما يشتمل ذلك على

معرفة الثقافة، وسلوك السكان الذين يعيشون فـى الأقليم. ويعتبر هـذا المنهـج مبنيـا علـى الفلسـفة المثالية التى تعتبر بأن الواقع هو إلى حد كبير نتاج للتصور العقلى أو الذهنى(29).

وتعد أعمال توان (Tuna, 1974, 1977) Topophilia(30)، Space and Place خير مثال على استخدام منهج علم الظاهرات فى دراسة الشعور، , الادراك والانطباعات الانسانية تجـاه الحيز المكانى على اختلاف مستوياته من الحجـرة، فـالأقليم، فالدولـة، الـى العـالم. وقد حـاول فـى دراساته مقارنة الاختلافات الثقافية بين الجماعات الانســانية فـى نظرتها وانطباعتها نحو البيئـات التى تحيط بها(31).

أمــا الفلسـفة الوجوديـة فتظهـر جليـة فـى المنهـج الـذى اسـتخدمه ساموبلـــــــــز (Samuels, 1978, 1981) فى الجغرافيا البشرية. فسـامويلز يـرى بـأن الانسـان يؤكـد وجـوده مكانيا كوسيلة لتحقيق ذاتـه وتحديد علاقته بالبيئـة المحيطـة بـه(32). ومـن ثـم تصبـح الظـواهــر الموضوعية اماكن ذات معنى بالنسبة للانسان بعد أن يترك الانسان بصماتـه عليهـا فعمليـة صنـع الانسان لأماكن خاصة به ترسخ وجوده وتعطى للمظهر اللاندسكيبى تنظيما مكانيا يكون له معنـى خاص وارتباط عاطفى بالنسبة للانسان. وقد تستعمل الطريقة الوجودية لاعادة كتابة السير المكانية للافراد والجماعـات وتصويـر البيئـة الجغرافيـة كمـا يرونهـا أو يعيشـونها. وخلاصـة القـول بــأن الجغرافيا الانسانية تؤكد على ذاتية المعرفة وتهدف إلى زيادة فهم الواقع الانسانى ولا تسـعى الـى التعليل والتنبؤ كما تفعل الطرق المتبعة فى المنهج العلمى الموضوعى(33).

الثورة الراديكالية The Radical Revolution

بالرغم من ظهور الاتجاه الانسانى فى الجغرافيـا فـى نهايـة السـتينات وأوائـل السـبعينات كاتجاه مضـــاد للمنهـج الوضعـى فـإن ردة الفعـل العنيفـة نحـو هـذا الاتجـاه الاخـير قـد جـاءت مـن الجغرافيين الراديكاليين. لذلك فإن العديد مـن الجغرافييـن يعتـبر بـأن الثـورة الثانيـة فـى الجغرافيـا البشـرية قـد تمـيزت بأنهـا راديكاليــة (Smith, 1977) أو أنهـا ذات علاقــة وثيقـة بالمســائل الاجتماعية. فالثورة الكمية لم تكن مقبولة لدى عدد كبير من الجغرافيين الاوائل فى اوربا وامريكـا ولكن فى نهاية الستينات أظهر الجيل الجديد من الجغرافيين الأمريكيين انزعاجهم من هـذا الاتجـاه

الموضوعى فى الجغرافيا. بل إن هذا الاستياء نحو الطرق الميكانيكية المجردة كان جزءا من الشعور العام بفشل العلم فى مواجهته للمشاكل الاجتماعية الرئيسية المعاصرة والتى أهمها التلوث، الفقر، والجوع، والتفرقة العنصرية، وعدم التكافؤ الاجتماعى أو العدالة الاجتماعية، واستغلال الأراضى المستعمرة من قبل الدول الاستعمارية والشركات الاحتكارية الرأسمالية[34].

وبالرغم من حدوث الثورة الراديكالية كتغيير رئيسى فى الجغرافيا فى نهاية الستينات فإن البحث فى المواضيع الاجتماعية يرجع إلى بداية ذلك العقد. فالمشاكل المتعلقة بالمحن الاقتصادية الاقليمية أثارت انتباها شديدا فى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية. فظهرت بعض الأساليب الجديدة للتصنيفات المكانية المتنوعة فى قياس الحالة الاقتصادية، ومحاولة إيجاد مقياس أو معيار لمستوى المعيشة يستخدم فى تحديد الأقاليم، ومحاولات أخرى لايجاد علاقة بين افضلية المكان ومقياس الرفاهية، ونشرت فى هذه الفترة أبحاث فى الجغرافيا الطبية واهتم الجغرافيون ايضا بدراسة مشاكل التنمية فى الدول النامية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

ومنذ بداية السبعينات زادت الأدبيات حول المشاكل الاجتماعية والمواضيع المتعلقة بالرفاهية الاجتماعية بدرجة ملحوظة. فقد تناولت مجلة Antipode الراديكالية موضوع الفقر فى عددين Peet, 1970, 1972)) وظهر أول كتاب حول هذا الموضوع فى نفس الفترة (Morrill and Wholenberg, 1971)[35] وظهرت مجموعة من الكتب الجغرافية حول مواضيع أحياء الزنوج فى أمريكا وجغرافية الجريمة والرعاية الصحية. وفى نفس الوقت اتجه الجغرافيون الى البحث فى موضوع جغرافية الرفاهية الاجتماعية، وتطرق بعض الاقتصاديين إلى إحلال اقتصاد الرفاهية بدلا من الاقتصاد التحليلى التقليدى كنقطة انطلاق لنظرية الموقع مما مكن الجغرافيين البشريين من دراسة المشكلات الاجتماعية فى اطارها المكانى.

إن الاهتمام المتزايد بمواضيع الرفاهية لم يحدث فى هذه الفترة اعتباطا وإنما برز فى تلك الفترة كرد فعل من قبل الجغرافيين البشريين للظروف الأكاديمية والاجتماعية والسياسية التى كانت سائدة فى الولايات المتحدة بصفة خاصة فكما كانت الثورة الكمية إحدى الاهتمامات الاكاديمية والاجتماعية نتيجة للتركيز على تكنولوجيا الفضاء، ومحاولة إيجاد طرق علمية لإدارة الشئون البشرية فى الولايات المتحدة، فإن نهاية الستينات تمثل نقطة التحول نحو المواضيع ذات

العلاقة الاجتماعية نتجية للحركة الراديكالية التي قادها الشباب ضد الحرب الفيتنامية وعدم اكتراث الحكومة الامريكية بمظاهر عدم التكافؤ الاجتماعي.

فالجغرافيا الراديكالية هى الجغرافية التي ظهرت فى سنوات مشكلات التلوث ومشاكل المدن. وهى أيضا الجغرافيا التي ظهرت فى فترة مابعد الحرب العالمية الثانية حيث بدأ مستوى المعيشة يرتفع بدرجة كبيرة ومستمرة فى بعض المناطق من العالم (أوربا وأمريكا) بينما لم يحدث تغيرا ملحوظا فى مستوى المعيشة فى بقية أجزاء العالم بسبب حدوث مشكلات سوء التوزيع الاقتصادى الذى أثار انتباه الجغرافيين ودعاهم الى التركيز على مثل هذه المشكلات الملحة.

وكما حدث فى الثورة الكمية فإن الاتجاه نحو المواضيع ذات العلاقة الاجتماعية الوثيقة اتخذ عدة أوجه. فلقد حدث الانقسام الذى لا مفر منه بين الجغرافيين الليبراليين والراديكاليين، فالمجموعة الأولى تدعو الى التغيير التدريجي فى النظام الاجتماعى والاقتصادى القائم بينما المجموعة الراديكالية ترى بأنه ليس هناك حل سوى الثورة الاشتراكية لخلق مجتمع عادل على أنقاض المجتمع اللا انسانى المتمثل فى الدولة الرأسمالية. هذا وقد تمكن بعض من الليبراليين من تولى مناصب هامة فى الاجهزة التنفيذية للدولة تتيح لهم فرصة وضع السياسات وصنع القرارات الهامة وكذلك شارك بعضهم فى البحوث الممولة من الجهات الرسمية فى الدولة.

أما الجغرافيون الراديكاليون فقد عكفوا على نقد الأدبيات الجغرافية التقليدية التى بنيت على المناهج الأخرى وبصفة خاصة المنهج الوضعى واشاروا بأن مثل هذا النوع من الجغرافيا يعمل على تأكيد النظام الرأسمالى وسيطرة الشركات الاحتكارية والطبقات البرجوازية على الموارد واستغلالها لمصلحتهم الخاصة. ونادوا بجغرافية راديكالية تعمل على تحسين الأوضاع الاجتماعية وتقليل الفوارق بين الطبقات وبين الدول المتقدمة والنامية وعموما فإن المنهج المتبع فى الجغرافيا الراديكالية قائم على المذهب المادى الجدلى الذى يقول بأن المجتمع البشرى يتطور بسلسلة من التناقضات، وبأن أخر مرحلة هى مرحلة سيطرة البرولوتاريا[36].

الخاتمـــة

ناقشت هذه الورقة أهم الاتجاهات الفلسفية والمنهجية فى الجغرافيا منذ العصور القديمة حتى وقتنا الحاضر. ففى الجزء الأول من هذا البحث تم استعراض التراث الجغرافى القديم والاسلامى وما كتب فى عصر الكشوف الجغرافية وقد كان الطابع الوصفى هو الاتجاه الغالب على كتابات الجغرافيين فى هذه المرحلة باستثناء بعض الكتابات المحدودة التى اهتمت بتحليل وتعليل حدوث بعض الظواهر الجغرافية بغية الوصول الى بعض التعميمات. هذا وقد تميزت أعمال الباحثين فى هذه الفترة بشموليتها وعدم وضوح التخصص العلمى الدقيق وإنما كان هدف العلماء في هذه المرحلة السعي وراء المعرفة الكلية، ولذلك لم يكن منهج البحث واضحا ومحددا. وقد اهتم الجغرافيون فى هذه المرحلة باستكشاف الأراضى المجهولة والترحال لمسافات بعيدة من اجل جمع المعلومات وتدوينها. وقد استخدم الجغرافيون أيضا، المنهج الرياضى لتحديد مواقع الظواهر الجغرافية على الخرائط مما ساهم فى تطوير علم الخرائط فيما بعد.

أما القسم الثانى من هذا البحث فقد خصص لمناقشة اصول الجغرافيا الحديثة. وقد لوحظ أن كتابات الجغرافيين فى هذه الفترة تتميز بشموليتها وبارتباطها بالعلوم الأخرى. ونظرا لأن النصف الثانى من القرن التاسع عشر شهد تطورا كبيرا فى العلوم الطبيعية والبيولوجية فقد ركز الجغرافيون على دراسة الجغرافية الطبيعية مستخدمين الطرق العلمية المستنبطة من علوم الارض. وقد أدت محاولة الجغرافيين لايجاد قوانين عامة تفسر السلوك البشرى عند دراستهم لعلاقة الانسان بالبيئة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الى ظهور الحتمية البيئية. حيث اصبح كل السلوك الانسانى يعزى الى الظروف البيئية. وقد أدى هذا الى انزعاج بعض الجغرافيين وغيرهم من العلماء الاجتماعيين مما دعاهم الى نقد هذا المنهج والبحث عن مناهج بديلة. ومن الاتجاهات البديلة التى ظهرت فى بداية القرن العشرين كرد فعل للحتمية البيئية مجموعة من المدارس الجغرافية التى ركزت على أهمية التفرد الحضارى والأقليمى فى الدراسات الجغرافية. فظهرت المدرسة الامكانية فى فرنسا وتبعها ظهور المدرسة اللاندسكيبية فى أمريكا واهتم الجغرافيون فى هذه الفترة بدراسة الاختلافات المكانية بين الأقاليم الجغرافية المتباينة متبعين

في ذلك المنهجين التاريخي والأقليمي. وقد ساد هذا الاتجاه في الجغرافيا حتى منتصف الخمسينات.

أما النصف الثاني من القرن العشرين فيمكن أن نعتبره نقطة البداية في الجغرافيا المعاصرة، حيث حدثت تطورات جذرية في فلسفة ومنهج الجغرافيا. فحتى منتصف الخمسينات كانت الجغرافيا الأقليمية والبشرية بصفة خاصة أدبية أكثر منها علمية. وكانت الحقائق دائما تقرر على ضوء الملاحظات العابرة فى الحقل بدلا من القياسات الدقيقة والعلاقات السببية كانت تعتمد على الحدس بدلا من اختبار الفرضيات.

أما فى الستينات فقد حدثت الثورة الكمية وبدأ استخدام النماذج النظرية فى الجغرافيا. بذلك أصبح الاتجاه السائد فى الجغرافيا خلال الستينات موجها نحو التخصص العلمى الدقيق والاستفادة من العلوم الطبيعية والاجتماعية والمناهج المستخدمة فيها مع التركيز على الطرق الكمية فى البحث وهذا الاتجاه العام كان مبنيا على النظرة الفلسفية الوضعية والمنهج العلمى الموضوعى لدراسة الظواهر الجغرافية. وقد اعتمد البحث الجغرافى فى هذه المرحلة على الطرق العلمية المعتمدة على المشاهدة والملاحظة الحسية للظواهر الطبيعية والبشرية، وتحديد المشكلة واختبار الفرضيات المطروحة للدراسة عن طريق جمع البيانات وتحليلها بقصد الوصول الى نظريات وقوانين عامة تحكم هذه الظواهر. ومن أهم طرق البحث الجغرافى التى سادت فى هذه الفترة هما التحليل المكانى، والتحليل الأقليمى المركب، وقد استفاد الجغرافيون فى مثل هذه التحليلات من العلوم الأخرى ذات العلاقة كعلم الأقليم والاقتصاد.

أما فى مجال دراسة علاقة الانسان بالبيئة فقد استفاد الجغرافيون من علم الايكولوجى وظهور نظرية الانظمة البيئية العامة فى تطوير التحليل الايكولوجى فى الدراسات الجغرافية لمعالجة المشكلات البيئية التى بدأت تظهر فى الستينات نتجية سوء استخدام الانسان للبيئة. ويعتبر هذا المنهج من أهم المناهج فى الجغرافيا لأنه عمل على حل مشكل ثنائية المنهج فى الجغرافيا بين ما يعرف بالجغرافيا الطبيعية والبشرية.

أما فى السبعينات فقد بدأت تظهر اتجاهات جديدة مضادة للفلسفة الوضعية والمنهج العلمى الموضوعى فى الجغرافيا. فظهر الاتجاه الانسانى فى الجغرافيا وهو يركز على الجوانب

الانسانية فى دراسة الظواهر الجغرافية وعلى وجه الخصوص البشرية منها. وقد ظهر هذا الاتجاه نتيجة لاستياء بعض الجغرافيين من الإفراط فى محاولة تقنين السلوك البشرى والخروج بأنماط عامة بالرغم من الاختلافات الثقافية والبيئية للجماعات البشرية. كذلك عدم ارتياح هؤلاء الجغرافيين للدراسة الكمية والتركيز على النماذج الرياضية بقصد الوصول الى نظريات عامة تفسر السلوك الانسانى هذا وقد اعتمدت الجغرافيا الانسانية على المذاهب الفلسفية للمعرفة مثل المثالية والوجودية وعلم الظاهرات. والعامل المشترك بين هذه النظريات الفلسفية هو تركيزها على الذاتية بدلا من الموضوعية التى تعتبر أساس الفلسفة الوضعية. وطرق البحث فى الجغرافيا الانسانية تعتمد فى معالجتها للمواضيع المطروحة للبحث على الخبرة الانسانية والادراك والمعرفة. إذ يرى الجغرافيون الانسانيون بأن معرفة الاشياء أو الظواهر لا توجد مستقلة وإنما يمكن دراستها عن طريق دراسة الخبرة الانسانية للجماعة البشرية وبيئتهم الجغرافية. فالتركيز فى هذا المنهج ليس على محاولة الحصول على قوانين ونظريات عامة للظواهر الجغرافية وإنما على محاولة فهم المعانى المتميزة والمتفردة لتلك الظواهر المكتسبة من الخبرة الانسانية.

أما الاتجاه الاخير الذى بدأ يسود فى السبعينات والذى يعتبره البعض بمثابة الثورة الثانية فى الجغرافيا فهو الاتجاه الراديكالى الذى يعتمد على الايدولوجيات الثورية التى تسعى الى تحقيق العدالة الاجتماعية وتقليل الفوارق بين الطبقات فى المجتمعات الرأسمالية. وتهتم الجغرافيا الراديكالية بدراسة المواضيع ذات العلاقة الاجتماعية والعمل على تحسين مستوى المعيشة ونوعية الحياة. ولذلك فهى تهتم بدراسة علاقة الانسان بالبيئة والمشكلات المترتبة على استغلال النظام الرأسمالى للموارد.

والمنهج المتبع فى هذه الدراسات هو نقد الجغرافيا الموضوعية والاعتماد على المذهب المادى الجدلى الذى يرى بأن المجتمع البشرى يتطور بسلسلة من التناقضات فى التحليلات الجغرافية الراديكالية. ويبحث المشتغلون فى هذا المجال فى جذور المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية ويعزونها الى تطور النظام الرأسمالى العالمى وسيطرته على المجتمعات البشرية ومواردها البيئية إما عن طريق الاستعمار بأشكاله المختلفة او عن طريق الشركات الاحتكارية.

وهكذا نلاحظ بأنه بالرغم من انه هناك محاولات لتوحيد المنهج فى الجغرافيا كاستخدام التحليل الايكولوجى فى دراسة علاقة الانسان بالبيئة وتقارب العلوم وتعاونها فى دراسة المشكلات الانسانية والبيئية، إلا أنه لازالت هناك اتجاهات مختلفة تسود فى الجغرافيا فى الثمانينات وذلك لاختلاف الفلسفات والايدولوجيات التى يعتنقها الجغرافيون وقد ادى هذا بطبيعة الحال الى تعدد المناهج البحثية فى الدراسات الجغرافية.

الهوامش والمراجع

1. P.F. James, <u>All Possible Words</u>. The Bobbs-Merril Company, Inc., New York, 1972, pp 19-15.
2. R. Hartshorne, <u>The Nature of Geography</u>, the Association of American Geographers, Lancaster, Pa., 1939.
3. ____________, <u>Perspective on the Nature of Geography</u>, Rand. McNally and Company, Chicago, 1959.
4. G. Taylor, <u>Geography in the Twentieth Century</u>, Metheun, London, 1967, pp.28-29.
5. A. Buttimer, <u>Society and Milleu in the French Geographic Tradition</u>. Rand-McNally and Company, Chicago, 1971, pp. 43-58.
6. C. Sauer, "The Morphology of Landscape (1925)" <u>Land and Life</u>, pp. 315-50.
7. ______, "Forward to Historical Geography (1940)", in <u>Ibid</u>, pp. 351-79.
8. J.O.M. Broek, <u>Compass of Geography</u>, Charles E Merrill Books, Inc., Columbus, Ohio, 1966, pp. 58-60.
9. S. Gregory, <u>Statistical Methods and the Geographer</u>, Longman, London, 1963.
10. J.P. Cole, and King, C.A.M., <u>Quantitative Geography</u>, John Wiley, Londong, 1968.
11. L.J. King, <u>Statistical Analysis in Geography</u>, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, N.J., 1969.

12. R. J. Chorley, Directions in Geography, Methuen and Co. Ltd., Longon, 1973.

13. ________, and Haggett, P. Models in Geography, Methuen and Co. Ltd., London, 1967.

14. W. Isard, et al., Methods of Regional Analysis. MIT. Press, Cambridge, Mass 1960.

15. W. Christaller, Central Places in Southern Germany. Translated by C. W. Baskin, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, NJ. 1966.

16. D. Harvey, Explanation in Geography, Edward Arnold, London, 1969.

17. W. Bunge, Theoretical Geography, Lund, 1962.

18. P. Haggett, Locational Analysis in Human Geography, ST Martin & Press, New York, 1965

19. D. M. Smith, Human Geography: A Welfare Approach. St. Martin's Press, New York, 1977, pp 1-4.

20. B. Mitchell, Geography and Resource Analysis, Longman, London, 1979, p. 10.

21. C J Glacken, Traces on the Todian Shore, University of California Press, Berkeley Los Angeles, 1967.

22. H Barrows, "Geography as Human Ecology", Annals of the Association of American Geographers, 1923 13, 1-14.

23. P. Haggett, Geography A Modern Synthesis. Harper and Row Publishers, New York, 1983, p. 622.

24. R. J. Johnston, Philosphy and Human Geography, Edward Arnold, London, 1983, p 67

25. Y. F. Tuan, "Huministic Geography" Annals, Association of the American Geographers, 1976: 66, 266-76.

26. W. Kirk, "Historical Geography and the Concept of the Behavioral Environment", Indian Geographical Journal, 1951: 25, 152-160.

27. D. Lowenthal, "Geography Experience and Imagination: Towards a Geographic Epistemology," Annals of the Association of American Geographers, 1961, 51, 241-60.

28. I. Burton, et al., The Environment as Hazard, Oxford University Press, New York, 1978.

29. C. Harris, "The Historical Mind and the Practice of Geography" in Ley, D. and Samuels, M. S. (eds). Humanistic Geography, Croom Helm, Beckenham, 1978.

30. Y. F. Tuan, Topophilia Englewood Cliffs: Prentice Hall, N. Y. 1974.

31. _______, Space and Place. University of Minnesota Press, Minneapolis, 1977

32. M. S. Samuels. "An Existential Geography" in Harvey, M. E. and Holly, B. P. (eds). Themes in Geographic Thought, Croom Helm, Beckenham, 1981. 115-33

33. R. J. Johnston, Op. cit., pp. 68-75.

34. D. M. Smith, op. cit., pp 4-6.

35. R. L. Morrill, and E. H. Wholenberg, The Geography of poverty in the United States, McGraw-Hill, New York, 1971

36. R. Peet, (ed.), Radial Geography Maaroufa Press, Inc., Chicago, 1977. pp. 1-28.